علاء الدين
أو المصباح العجيب

(٨)

وَقَصَدَ عَلاءُ الدِّينِ إِلَى مَخْدَعِهِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الأَمِيرَةِ مُسْرِعاً ، وَسَأَلَهَا فِي لَهْفَةٍ شَدِيدَةٍ : « إِنِّي أَبْحَثُ عَنْ مِصْبَاحٍ قَدِيمٍ ، كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِهِ فِي مَخْدَعِي ، فَهَلْ عَثَرْتِ عَلَيْهِ ؟ » فَأَجَابَتْ فِي دَهَشٍ وَحَيْرَةٍ : « وَا أَسَفَاهُ ! لَقَدْ اسْتَبْدَلْتُ بِهِ مِصْبَاحاً جَدِيداً ؛ وَكُنْتُ أَجْهَلُ أَنَّ فِيهِ سِرًّا ، وَلَهُ شَأْنًا !! وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَدْرِ السَّاحِرِ الْمَاكِرِ ، بَعْدَ أَنْ نَقَلَنِي ، وَقَصْرِي ، إِلَى تِلْكَ الْبِلادِ النَّائِيَةِ . »

وَفَكَّرَ عَلاءُ الدِّينِ قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَسَأَقْصِدُ الآنَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، لِقَضَاءِ حَاجَةٍ لِي ؛ وَسَوْفَ أَعُودُ عِنْدَ الظُّهْرِ تَمَاماً ، فَإِذَا قَرَعْتُ الْبَابَ الْخَلْفِيَّ ؛ فَافْتَحِيهِ فَوْراً ؛ وَمُرِي الْخَدَمَ ، أَنْ يَكْتُمُوا عَنِ السَّاحِرِ كُلَّ شَيْءٍ . »

وَخَرَجَ عَلاءُ الدِّينِ ، وَأَخَذَ طَرِيقَهُ فِي الْخَلاءِ ، بَيْنَ الْحُقُولِ وَالْمَزَارِعِ وَصَادَفَ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ ، قَرَوِيًّا فَاسْتَوْقَفَهُ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَبَادَلاَ مَلاَبِسَهُمَا ، وَقَبِلَ الْفَلاَّحُ ؛ وَارْتَدَى عَلاءُ الدِّينِ مَلاَبِسَ الْقَرَوِيِّ ؛ فَبَدَا كَأَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ ، وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يُحَوِّلَ عَنْهُ الأَنْظَارَ ، وَأَنْ يَضِلَّ عَنْهُ السَّاحِرُ ، إِذَا رَآهُ . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ؛ وَجَاسَ خِلاَلَهَا ، مُتَنَقِّلاً مِنْ حَانُوتٍ لِآخَرَ ؛ يَسْأَلُ عَنْ مَسْحُوقٍ خَاصٍّ ! حَتَّى عَثَرَ عَلَيْهِ ، بَعْدَ جَهْدٍ ، فِي إِحْدَى الْحَوَانِيتِ الْقَدِيمَةِ الْمُنْزَوِيَةِ ! فَابْتَاعَ مِنْهُ دِرْهَماً ، بِدِينَارٍ ! ثُمَّ قَصَدَ تَوًّا إِلَى الْقَصْرِ ! وَطَرَقَ الْبَابَ السِّرِّيَّ ؛ وَكَانَتِ الأَمِيرَةُ فِي انْتِظَارِهِ ؛ فَدَخَلَ ، وَعَلاَئِمُ الْبِشْرِ تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِ ! ثُمَّ انْتَحَيَا رُكْناً ؛ فَهَمَسَ عَلاءُ الدِّينِ فِي أُذُنِ زَوْجِهِ قَائِلاً : « عَلَيْكِ بِتَنْفِيذِ مَا أُشِيرُ بِهِ ؛ حَتَّى نَسْتَرْجِعَ الْمِصْبَاحَ ، وَيَعُودَ إِلَيْنَا النَّعِيمُ وَالْهَنَاءُ ؛ فَإِذَا جَاءَ السَّاحِرُ ، فَادْعِيهِ إِلَى وَلِيمَةٍ تُقِيمِينَهَا لَهُ فِي الْمَسَاءِ ، فِي جَنَاحِكِ الْخَاصِّ ، وَإِذَا

حضرَ ؛ فتظاهرى بأنكِ قدْ نسيتِ كلَّ شيءٍ عنِّى ! ! وأنكِ تأمرينَ جانبهُ ثمَّ تحينى فرصةً ملائمةً ؛ وقدّمى لهُ كأساً منَ النبيذِ ؛ بعدَ أنْ تضعى بهِ هذا المسحوقَ ، وإذا شربهُ ، فسوفَ ينامُ لساعتينِ ! ! هذا دورُكِ ، يا عزيزتى ، فأتقنيهِ ، وهاكِ المسحوقَ وإلى اللقاءِ فى المساءِ إنْ شاءَ اللهُ . »

وجاءَ الساحرُ ، إلى القصرِ عشاءً ! فارسلتْ إليهِ الأميرةُ تدعوهُ إلى تناولِ العشاءِ معها ؛ فاجابَ الدعوةَ شاكراً ؛ وجلسا إلى المائدةِ ، وأكلا سوياً ، وطلبَ الساحرُ كأساً منَ النبيذِ ؛ فقدّمتْ لهُ ، وما كادَ يأتى على آخرِها ؛ حتى خرَّ فى سباتٍ عميقٍ ! لا يعى شيئاً . ودخلَ علاءُ الدينِ فى تلكَ الآونةِ ، وكانَ الترتيبُ موضوعاً لذلكَ ! وهمتِ الأميرةُ بتقبيلهِ ، فبادرَها بقولهِ : « يا دُرّتى ؛ ستكونُ قبلتى بعدَ عودتى ؛ معكِ إلى الأوطانِ ؛ ورؤيةِ الأهلِ والخلانِ . » وتقدّمَ إلى الساحرِ ؛ ونزعَ منْ صدرهِ المصباحَ ؛ ثمَّ دعكهُ بشدةٍ ؛ فظهرَ العفريتُ ؛ فقالَ لهُ : « عُدْ بنا الى حيثُ كنّا ؛ ولا تبقِ لذلكَ الساحرِ أثراً . » واختفى العفريتُ ؛ وفى طرفةِ عينٍ ؛ عادَ القصرُ ومنْ فيهِ ، إلى حيثُ كانَ منْ قبلُ كأنهُ لمْ يحدثْ شىءٌ ! وفى الصباحِ ، وصلَ الخبرُ إلى السلطانِ ؛ فأطلَّ منَ النافذةِ ، ولشدّ ما كانَ دهشتهُ ، عندَ ما رأى القصرَ قدْ عادَ إلى سيرتهِ الأولى ؛ وعادتْ معهُ بهجتهُ ؛ وغابتْ عنِ المكانِ وحشتهُ ؛ وأنبأَ أهلهُ بالخبرِ ؛ فعمَّ السرورُ والفرحُ ؛ ولمْ يطقِ السلطانُ صبراً ؛ فأسرعَ إلى علاءِ الدينِ وزوجهِ ؛ وبثَّهما شوقهُ ، وفرطَ سرورهِ بلقائهما ؛ بعدَ أنْ فقدَ الأملَ فى رؤيتهما واعتذرَ لعلاءِ الدينِ عمَّا صدرَ منهُ ، ورجاهُ أنْ يصفحَ عنهُ .

وانقضتْ بضعةُ شهورٍ ؛ عاشَ الجميعُ فى أثنائها ، فى اطمئنانٍ مستقرٍ ، وهناءٍ مستمرٍ . ولكنْ حدثَ بعدَ ذلكَ ، أنْ علمَ أخو الساحرِ ، بمقتلِ أخيهِ ؛ وكانَ ساحراً مثلهُ ؛ فاستلهمَ طلاسمهُ وسحرهُ ! وتبيّنَ لهُ ، سرَ الحوادثِ جميعها ، فصمّمَ على أنْ ينتقمَ لاخيهِ ، منْ قاتلهِ ، وأنْ يضعَ يدهُ على المصباحِ العجيبِ ، فقصدَ إلى الصينِ فوراً ؛ حيثُ يقيمُ علاءُ الدينِ

وَزَوْجُهُ ، وَرَاحَ يَتَنَقَّلُ فِي الْمَدِينَةِ ، مِنْ حَيٍّ إِلَى آخَرَ ، وَمِنْ دُكَّانٍ إِلَى آخَرَ ، يَتَقَصَّصُ الآثَارَ ، وَيَسْتَقْصِي الأَخْبَارَ . وَوَصَلَ إِلَى عِلْمِهِ ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ ، أَنَّ بِالْمَدِينَةِ امْرَأَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً ، تُدْعَى « الشَّيْخَةَ فَاطِمَةَ » ، وَلَهَا مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ بَيْنَ النَّاسِ ، يُقَدِّسُونَهَا ، وَيَعْمَلُونَ لَهَا حِسَابًا كَبِيرًا . وَفِي مَسَاءِ يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ ، قَصَدَ إِلَى مَنْزِلِهَا ، وَقَتَلَهَا ، ثُمَّ دَهَنَ وَجْهَهُ

فاستلفت ذلك نظر الاميرة . . . . .

بِطِلَاءٍ جَعَلَهُ يَبْدُو كَوَجْهِ الشَّيْخَةِ ، وَارْتَدَى مَلَابِسَهَا ؛ وَخَرَجَ فِي الصَّبَاحِ وَجَاسَ خِلَالَ الْمَدِينَةِ ، وَالنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ ، يَتَلَمَّسُونَ بَرَكَتَهُ ، وَيَرْجُونَ دَعْوَتَهُ ! ! وَوَصَلَ إِلَى الْمَيْدَانِ ، الَّذِي يَقُومُ فِيهِ قَصْرُ عَلَاءِ الدِّينِ ، وَكَانَتِ الْجُمُوعُ قَدْ تَدَفَّقَتْ عَلَيْهِ ، وَعَلَتْ ضَجَّتُهُمْ ، فَاسْتَلْفَتَ ذَلِكَ نَظَرَ الأَمِيرَةِ ؛ فَطَلَبَتْ إِلَى إِحْدَى وَصِيفَاتِهَا ، أَنْ تَرَى مَا الْخَبَرُ ، فَعَادَتْ وَأَنْبَأَتْهَا ، بِأَنَّ النَّاسَ مُلْتَفُّونَ حَوْلَ « الشَّيْخَةِ فَاطِمَةَ » يَسْأَلُونَهَا الدَّعَوَاتِ ، فَخَطَرَ لِلأَمِيرَةِ ، أَنْ تَدْعُوَ تِلْكَ الْقِدِّيسَةَ لِزِيَارَتِهَا ، وَالتَّبَرُّكِ بِهَا ، وَكَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ عَنْهَا مِنْ قَبْلُ . وَذَهَبَتْ إِحْدَى الْوَصِيفَاتِ ، تَسْأَلُهَا أَنْ تَزُورَ سَيِّدَتَهَا فِي الْقَصْرِ ؛ لِتَدْعُوَ لَهَا بِالتَّوْفِيقِ وَطُولِ الْعُمْرِ ! فَقَبِلَتِ الدَّعْوَةَ ؛ وَرَافَقَتْهَا الْوَصِيفَةُ إِلَى حَيْثُ سَيِّدَتُهَا فِي الِانْتِظَارِ ؛ وَاسْتَقْبَلَتْهَا الأَمِيرَةُ بِالإِجْلَالِ وَالإِكْبَارِ ؛ وَهِيَ لَا تَعْلَمُ أَنَّ تَحْتَ الثِّيَابِ شَيْطَانًا مَارِدًا ؛ وَمُجْرِمًا حَاقِدًا ؛

وارتدى ملابسها . . .

وَعَرَضَتْ عَلَيْهَا أَنْ تُقِيمَ مَعَهَا فِي الْقَصْرِ ؛ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ ، فَطَلَبَتِ الشَّيْخَةُ مَكَاناً قَصِيّاً ؛ لِتَعْبُدَ فِيهِ رَبَّهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ، وَقَدَّمَتِ الْأَمِيرَةُ لَهَا أَكْلاً شَهِيّاً ، فَأَعْرَضَتْ عَنْهُ ، وَسَأَلَتْ خُبْزاً وَتَمْراً ، ثُمَّ صَلَّتْ أَمَامَ الْجَمِيعِ كَأَنَّهَا حَقّاً قِدِّيسَةٌ تُرْجَى ! ثُمَّ قَامَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا الَّتِي خُصِّصَتْ لَهَا ، وَحَضَرَ فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ ، عَلَاءُ الدِّينِ ؛ فَقَصَّتْ عَلَيْهِ الْأَمِيرَةُ ، كُلَّ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخَةِ فَاطِمَةَ ! فَسُرَّ كَثِيراً ، وَأَوْصَى بِهَا خَيْراً .

وَفِي ظُهْرِ الْيَوْمِ التَّالِي ، طَافَتِ الْأَمِيرَةُ بِالْقَصْرِ ، مَعَ الشَّيْخَةِ الْمُزَيَّفَةِ ! وَسَأَلَتْهَا أَنْ تُبَارِكَ كُلَّ مَكَانٍ تَحُلُّ فِيهِ ، وَمَا كَادَتِ الشَّيْخَةُ فَاطِمَةُ تَدْخُلُ الرَّدْهَةَ الْكُبْرَى حَتَّى صَاحَتْ : « يَا سَيِّدَتِي ، مَا أَجْمَلَ هٰذِهِ الرَّدْهَةَ ! كُلُّ مَا فِيهَا عَجِيبٌ ! غَيْرَ أَنَّهُ يَنْقُصُهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ ، لِيَتِمَّ جَمَالُهَا ، وَيَكْمُلَ بَهَاؤُهَا . » فَسَأَلَتِ الْأَمِيرَةُ فِي شَغَفٍ : « وَمَا هٰذَا الشَّيْءُ الَّذِي تَقْصِدِينَ يَا أُمَّاهُ ؟ » فَقَالَتْ فَاطِمَةُ : « يَنْقُصُهَا بَيْضَةُ رُخٍّ ، تُعَلَّقُ فِي وَسَطِ السَّقْفِ ، فَتُصْبِحُ الرَّدْهَةُ بِذٰلِكَ ، مَكَاناً رَائِعاً غَرِيباً ! » فَقَالَتِ الْأَمِيرَةُ : « وَهَلْ مَا تَطْلُبِينَ سَهْلُ الْمَنَالِ يَا أُمَّاهُ ؟ » فَقَالَتِ الشَّيْخَةُ : « إِنَّ الْمُهَنْدِسَ الَّذِي بَنَاهَا ، يَعْلَمُ أَيْنَ الْبَيْضَةُ وَكَيْفَ يَلْقَاهَا . » وَجَاءَ عَلَاءُ الدِّينِ ، فَقَصَّتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ ، مَا كَانَ مِنْ « فَاطِمَةَ » وَمَا اقْتَرَحَتْ بِشَأْنِ الرَّدْهَةِ الْكُبْرَى ، فَقَالَ عَلَاءُ الدِّينِ ، فِي عَطْفٍ وَحَنَانٍ : « يَا ذُرِّيَّ أَنَا كَفِيلٌ بِمَا تَشْتَهِينَ وَسَأُصْدِعُ بِمَا تَأْمُرِينَ . وَيَكْفِي أَنْ يَخْطُرَ الشَّيْءُ بِبَالِكِ ، لِيَكُونَ فَوْراً أَمَامَكِ . » وَقَامَ إِلَى الْمِصْبَاحِ ، وَدَعَكَهُ بِشِدَّةٍ ؛ فَظَهَرَ الْعِفْرِيتُ ؛ وَأَمَرَهُ عَلَاءُ الدِّينِ بِأَنْ يُحْضِرَ بَيْضَةَ رُخٍّ . وَمَا كَادَ الْعِفْرِيتُ يَسْمَعُ ذٰلِكَ ، حَتَّى صَاحَ غَاضِباً سَاخِطاً : « أَلَمْ يَكْفِكَ يَا سَيِّدِي كُلُّ مَا قُمْتُ بِهِ مِنْ أَجْلِكَ ! حَتَّى تَأْمُرَنِي الْيَوْمَ ؛ بِمَا لَا أَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، إِنَّ أَمْرَكَ هٰذَا يَكْفِي لِمَحْوِكَ وَمَنْ مَعَكَ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ صَادِرٌ مِنْ شَخْصٍ غَيْرِكَ ، لَدَكَّ الْقَصْرُ دَكّاً ! ! أَلَا فَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هٰذَا الطَّلَبِ ، مُجْرِمٌ أَثِيمٌ ، وَسَاحِرٌ لَئِيمٌ ، فَاحْذَرْ لِنَفْسِكَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكَ بِرَقِيبٍ . » ثُمَّ اخْتَفَى ؛ فَعَادَتْ إِلَى عَلَاءِ الدِّينِ هَوَاجِسُهُ ، وَرَاحَ يُفَكِّرُ فِي هٰذَا السَّاحِرِ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ ، وَهَدَاهُ تَفْكِيرُهُ ،

إِلَى حِيلَةٍ نَاجِحَةٍ وَخُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ ، وَفِي مَسَاءِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ ؛ تَظَاهَرَ عَلَاءُ الدِّينِ ، بِأَنَّ بِرَأْسِهِ صُدَاعاً أَلِيماً ، وَأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ تَحْضُرَ « الشَّيْخَةُ » ، لِتَقْرَأَ عَلَى رَأْسِهِ شَيْئاً يَشْفِيهِ ، وَدُعِيَتْ « الشَّيْخَةُ » لِتُبَارِكَ الْمَرِيضَ ؛ فَرَقَصَ قَلْبُ السَّاحِرِ طَرَباً ! ! وَخَرَجَ وَفِي يَدِهِ خَنْجَرٌ ، تَحْتَ الْعَبَاءَةِ ، يَبْغِي بِهِ الْقَضَاءَ عَلَى غَرِيمِهِ ، فِي تِلْكَ الْفُرْصَةِ السَّانِحَةِ . وَدَخَلَتِ الشَّيْخَةُ ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوَ الْمَرِيضِ ؛ تَدْعُو لَهُ بِالْبَرَكَةِ وَعَاجِلِ الشِّفَاءِ ؛ وَفِي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ لَمَحَ عَلَاءُ الدِّينِ الْخَنْجَرَ تَحْتَ الْعَبَاءَةِ ! فَقَفَزَ عَلَى السَّاحِرِ قَفْزَةً سَرِيعَةً ! وَانْتَزَعَ مِنْ يَدِهِ الْخَنْجَرَ ، وَطَعَنَهُ بِهِ طَعْنَةً نَجْلَاءَ قَضَتْ عَلَيْهِ لِسَاعَتِهِ . وَفَزِعَتِ الْأَمِيرَةُ فَزَعاً شَدِيداً ، وَصَاحَتْ غَاضِبَةً : « لَقَدْ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ، وَشَيْخَةً تَقِيَّةً ! فَوَاحَسْرَتَاهُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْكَ ! » فَطَمْأَنَهَا عَلَاءُ الدِّينِ ، وَكَشَفَ الرِّدَاءَ عَنِ الشَّيْخَةِ الْمُزَيَّفَةِ قَائِلاً : « يَا دُرِّيَّ الْمَحْبُوبَةَ ، لَمْ تَكُنِ الشَّيْخَةُ إِلَّا سَاحِراً أَثِيماً جَاءَ يَنْتَقِمُ لِأَخِيهِ ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ « الشَّيْخَةَ فَاطِمَةَ » ، وَارْتَدَى مَلَابِسَهَا ! ! فَطِيبِي نَفْساً وَاحْمِدِي اللهَ إِذْ نَجَّانَا مِنْ عَدُوٍّ لَعِينٍ » فَسُرِّيَ عَنِ الْأَمِيرَةِ وَهَدَأَ رَوْعُهَا ؛ ثُمَّ قَامَتْ هِيَ وَزَوْجُهَا وَسَجَدَا لِلهِ حَمْداً وَشُكْراً .

وَانْقَضَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ بِضْعُ سِنِينَ ، مَاتَ فِي أَثْنَائِهَا السُّلْطَانُ فَجَلَسَتِ الْأَمِيرَةُ عَلَى الْعَرْشِ ؛ وَظَلَّتْ عُمْراً طَوِيلاً ، تَحْكُمُ الْبِلَادَ ؛ وَبِجَانِبِهَا زَوْجُهَا الْعَزِيزُ ؛ وَهٰكَذَا عَاشَا يَنْعَمَانِ فِي عِزٍّ وَهَنَاءٍ ؛ وَأُبَّهَةٍ وَرَخَاءٍ ! بَعْدَ أَنْ قَضَيَا عَلَى السَّاحِرِ وَأَخِيهِ فَأَمِنَا عَبَثَ الْحَاسِدِينَ ، وَحِقْدَ الْحَاقِدِينَ ؟